الفصل الثاني

المقاصد الشرعية في دراسات القرآن الكريم المسمّاة بالتفسير المقاصدي، علاقتها بالواقع، وعناية المفسرين بهذا النوع من التفسير

وفيه مباحث:

المبحث الأول: المقاصد الشرعية والتفسير المقاصدي.

المبحث الثاني: علاقة المقاصد الشرعية والتفسير المقاصدي بالواقع.

المبحث الثالث: التفسير المقاصدي العلمي في ميزان التشريع.

المبحث الرابع: نماذج من عناية العلماء بالتفسير المقاصدي:

(الإمام ابن العربي، الإمام ابن قيم الجوزية، الشيخ ابن سعدي، الشيخ محمد رشيد رضا) أنموذجاً.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الفصل الثاني

المقاصد الشرعية في دراسات القرآن الكريم المسمّاة بالتفسير المقاصدي، علاقتها بالواقع، وعناية المفسرين بهذا النوع من التفسير

فقد أولى ثُلةٌ من المسلمين عنايتهم بكتاب الله تدبراً ودراسةً ووقوفاً عند آياته وتوجيهاته، استنباطاً للعلائق بين الواقع الذي نعيش والهدي الذي نقرأ، إذ لايزال القرآن الكريم الكتاب لخالد الذي يواكب الأزمان كلها والعصور بمواءمةٍ مذهلةٍ كأنه نزّل اليوم، ليتحدث عن علوم الدنيا وخفاياها بجديدٍ مبهر في كل المجالات، فمنه نستقي العبر والتوجيه، والتعامل السليم مع الطوارئ والمستجدات.

بنى القرآن الكريم حياة الأسر والمجتمعات والأمة، وعالج شخصية المسلم وضميره وفِكره، ثم عالج أجزاء المجتمع حتى يتسنّى للمسلم توظيف طاقاته، وحسن استغلال الطاقات الكامنة حوله، وذلك في تناغمٍ عجيب، ومواكبةٍ فريدة.

ولعلّ من أهم المناهج التي يحسن بالمسلم الإلمام بها: فهم القرآن بغاياته وأهدافه ومقاصده، إذ أننا لن نستلهم المراد إلا بمعرفة القصد، فإذا كان التفسير يبيّن معاني كلمات القرآن ويوضّحها للمكلّفين، فإنّ إعمال مقاصد التشريع في سبر أغوار النص القرآني، ثم تطبيقه على الواقع العلميّ المعاصر ركنٌ أساسٌ لا يُتناول بمعزلٍ عن التفسير، فبه تتضح مكنونات الآيات، ومنه نستنبط المراد من الخطاب الرباني.

ولقد اعتنى عدد من المفسرين على مر العصور بهذا النوع من التفسير الذي هو التفسير المقاصدي، وربط الآيات بالواقع، وبذلوا في تأصيل هذا التفسير جهوداً عظيمةً تشهد لها الأمة الإسلامية، إذ لاتزال رؤاهم اللّامعة التي أناروا بها الطريق مشعلاً وضّاءًا يهتدي بها الباحث والقارئ وكلّ طالب علم، ولله الفضل من قبل ومن بعد.

وإنّي -بإذن الله- سأحاول في هذا الفصل الثاني من الدراسة جمع أشتات العنوان، ولمّ أطرافه، ابتداءً بالحديث عن معنى التفسير المقاصدي، وفوائد العناية به، ثم حكم الأخذ بالتفسير العلمي للنصوص القرآنية، انتهاءً بنماذج من العلماء الذين سلكوا هذا المنهج، اقتداءً بهم، وإفادةً منهم، ثمّ إضافةً علميّةً عليهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الأول

المقاصد الشرعية، والتفسير المقاصدي

التفسير المقاصدي مركّب وصفي من كلمتين، لذلك سأوضّح هنا المعنى اللّغوي للكلمتين، ثم التعريف الاصطلاحي.

أمّا عن كلمة التفسير فلغةً تعود إلى الكشف والإظهار[١٦]، ومنه قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)[١٧].

أمّا المعنى الاصطلاحي لكلمة تفسير فعرّفه كثيرٌ من العلماء، ومنهم الإمام السيوطي حيث عرّف التفسير بأنه: علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيّها ومدنيّها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصّها وعامّها، ومطلقها ومقيّدها، ومجملها ومفسّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك[١٨].

وهنا تعريفٌ آخر للعالم الزركشي حيث رأى بأن التفسير اصطلاحاً هو: علمٌ يُفهم به كتاب الله المنزّل على نبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنّحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النّزول،

---

١٦ الجرجاني، علي بن محمد. ١٤٠٣/١٩٨٣. التعريفات. دار الكتب العلمية ببيروت: لبنان. ص٦٣.

١٧ سورة الفرقان، الآية رقم ٣٣.

١٨ السيوطي، جلال الدين. ١٣٩٤/١٩٧٤. الإتقان في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر. ١٧٤/٢.

والناسخ والمنسوخ[١٩].

أمّا التعريف الذي تميل إليه الباحثة باعتبار موافقته لمنهج الدراسة فهو تعريف الإمام الزرقاني، حيث عرّف التفسير بأنه: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[٢٠].

وقد رشّحت هذا التعريف بين التعريفين السابقين وأمثالهم، ذلك لأنّي أراه مناسباً للمفهوم، قريباً إلى المضمون، شاملاً المراد من هذه الدراسة.

آتي الآن إلى توضيح كلمة المقاصد، المركّب الثاني لمصطلح التفسير المقاصدي، فالمقاصد لغةً: أصلها من قصد يقصد قصداً، والمقصد مصدر ميمي، واسم المكان منه مقصِد، ويُجمع على مقاصد، ويُراد بهذه الكلمة في اللغة العربية معانٍ عدّة منها[٢١]:

١) الاعتماد والتوجّه واستقامة الطريق، ومنه قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)[٢٢]

٢) التوسّط وعدم الإفراط والتفريط، ومنه قوله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)[٢٣].

أمّا تعريف المقاصد اصطلاحاً فقد بذل علماء المقاصد والأصول الجهد في تبيين المعنى، فعرّف الإمام علّال الفاسي كلمة المقاصد بأنها: معرفة الغاية من الشريعة، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل

١٩ الزركشي، بدرالدين محمد. ١٣٦٧/١٩٧٥. البرهان في علوم القرآن. دار إحياء الكتب العربية: بيروت. ٣٣/١.

٢٠ الزرقاني، محمد عبد العظيم. ١٤١٥/ ١٩٩٥. مناهل العرفان في علوم القرآن. دار الفكر: بيروت ٧/٢.

٢١ أنيس، إبراهيم. (مرجع سابق). ٧٣٨/٢.

٢٢ سورة النحل، الآية رقم ٩.

٢٣ سورة لقمان، الآية ١٩

حكم من أحكامها[٢٤]، وعرّف الدكتور أحمد الريسوني المقاصد بأنها الغايات التي وضعتها الشريعة لأجل تحقيق مصلحة العباد[٢٥].

وقد وقفتُ على كثيرٍ من تعريفات العلماء لمصطلح المقاصد، حيث كان أغلبها يدور على معنى الحكمة، والمصلحة والغاية، ثم وقفتُ بعد ذلك على تتبّع الدكتور نور الدين الخادمي لكلمة المقاصد، فكانت الخلاصة أن استخدامات العلماء للكلمة قديماً وحديثاً كانت للتعبير عن مراد الشارع، ومصلحة المخلوقات، ورفع الضرر والمشقة عنهم، كذلك اندرج تحت مصطلح المقاصد: الكليات التشريعية الخمس[٢٦].

والخلاصة التي وصلتُ إليها بعد ذكر التعريفين السابقين واستعراض باقي التعاريف، أنّ التعاريف اللغوية والاصطلاحية كانت تسير معاً جنباً إلى جنب، لكن التعاريف الاصطلاحية أعمق، إذ تكلمت عن الجانب الشرعي تحديداً، فالتعريف الأول ناقش المقاصد الكلية والجزئية، بينما ناقش التعريف الثاني قصد المشرّع وقصد المكلّف.

ممّا سبق تخلص الباحثة هنا إلى استنباط تعريفٍ لكلمتي التفسير المقاصدي معاً، باعتبار أنّ المركب أصبح دلالةً على لون من ألوان التفسير، وفيه أقول بأن التفسير المقاصدي هو منهجٌ من مناهج التفسير، غايته تجلية الحكمة التي لأجلها نزل النص القرآني، والكشف عن الهدف وراءه، وذلك استجلاباً لمصلحة الخلق ممّا يقيم أمورهم في حالهم ومآلهم[٢٧].

---

٢٤ الفاسي، علال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. صـ٧.

٢٥ الريسوني، أحمد. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. صـ٧.

٢٦ الخادمي. نورالدين. ١٤١٩/١٩٩٨. الاجتهاد المقاصدي. نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر ١/٤٨-٤٩-٥٠-٥١

٢٧ هذا التعريف من استنتاج الباحثة، ذلك أني بحثت عن تعريفٍ للتفسير المقاصدي فلم أجد، والله ولي التوفيق.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني

علاقة المقاصد الشرعية والتفسير المقاصدي بالواقع

كان الفقه الإسلامي ولايزال المصدر الأول الذي تتكئ عليه الأمة منذ بزوغ شمس الرسالة وحتى اليوم، هذا الفقه الذي سيكون بلا روحٍ إن خلا من قراءةٍ مقاصديّة، إذ أن تتبع القصد من التشريع يجلّي الحكمة السامية التي لأجلها جاء الأمر والنهي، والحث والزجر.

واحدةٌ من أسباب نهوض المجتمع في عهد الرسول ﷺ وما بعده من عهود الازدهار، هو أنهم أعملوا المقاصد مع الفقه وأنزلوها على الواقع، إعمالاً مباشراً، فقرأنا في تاريخ الحضارة الإسلامية كيف أنهم سادوا وعمروا وملأوا الدنيا علماً ونوراً، بتوسط واعتدال، مهتدين بسنن التشريع القويم المواكب لجميع الأزمان والأماكن.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحٌ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أُدخِلت فبيها بالتأويل)[٢٨].

وفي صدد إنجاز هذا المبحث حسب ما قرأت فقد استنتجتُ أنّ إهمال المقاصد وتغييب ربطها عن الواقع –لاسيّما مستجدات العصر الحديث – طريقٌ مؤدٍ نحو التخلف، وسببٌ من أسبابه، إذ في إهمال الأخذ بالمقاصد جنوحٌ بالرؤية الإسلامية عن محتواها الإنساني والعمليّ النبيل إلى أداء عباديٍ فقط،

---

٢٨ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. ١٤١١/١٩٩١، إعلام الموقعين عن رب العالمين. نشر دار ابن الجوزي بالمملكة العربية السعودية ١١/٣

وإقصاءٌ لها عن أمور الدنيا ومصالح العباد، هذا فضلاً عن التعصبات المذهبية التي تنطلق من عدم الفهم السليم لسماحة هذا الدين ومسايرته كل متغيرات الأفكار والأمصار.

وتبرز أهمية العلاقة بين المقاصد بكل فروعه والواقع الحديث من النقاط التالية:

- هناك علاقة بين المقاصد والواقع نتلمّسها خلال تدبرنا للقرآن الكريم، إذ لا تخلو سورة إلا وقد أثرت في ثناياها جانبي الدين والدنيا، والعلم والعمل، في انسجامٍ تامٍّ لا تضارب بينهما، فالنصّ القرآني كان ولا يزال حيّاً متفاعلاً مع المتغيرات، منزّهاً عن الجمود، ذلك أن الجزئيات تقوم مع الكليات، والمعاني بحاجةٍ إلى العلل والمقاصد.
- إن المستجدات المتسارعة في عالمنا اليوم على كافّة الأصعدة تحتّم على الفقيه والمجتهد الاستناد إلى المقاصد الكلية والعامة، لبناء الرؤى المتينة وفق منظومة إسلامية شاملة، إذ كلاهما رافدٌ للآخر.
- الأزمة التي نعاني منها اليوم هي أزمة الوعي الديني وفهمه والتفقّه فيه، فالخلل في الفهم خللٌ في النتائج، إذ يقصّر المرء في القيام بواجباته تجاه نفسه ثم مجتمعه، وفي توضيح أطراف العلاقة بين المقاصد والواقع نجد أن المجتمعات كلّها –لاسيما المجتمعات المسلمة– إنما تقوم بفاعلية الإنسان فيها، وإدراكه للمعنى الحقيقي من التكليف، والقصد من الاصطفاء وحمل الرسالة بين سائر المخلوقات.

وفي هذا الصدد يقرّ رائد النهضة الفكرية مالك بن نبي بأن الحضارة تقوم بضرورة: (توفر مجموع الشروط الأخلاقية والماديّة التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو

ذاك)[٢٩]، وفي ثنايا هذا تتجلى المقاصد الضرورية الخمسة التي حفظها الشارع الحكيم وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل. إنزال المقاصد الشرعية بكل فروعها على الواقع يبدأ من فكر الإنسان، وإيمانه بقيمة الواجبات المناطة عليه، إذ أن في فقدان الهُويّة قلبٌ للحقائق، فبدلاً من أن تصبح عمارة الأرض إحياءٌ لها ستصبح تعديٍ عليها، وانتهاكٌ لحقوق أفرادها، جلباً للمظالم، واستعلاءً فيها، لأجل ذلك جاءت النصوص تنظّم الشَّره الإنساني، وتهذّب الجبلّة التملكيّة التي فطر الله الإنسان عليها، وربما هذا هو ما قصده ابن خلدون حين قال: (إن الحضارة مفسدةٌ للعمران)[٣٠] في حال لم تنظّم.

والخلاصة أن في ربط المقاصد الشرعية والتفسير المقاصدي بالواقع من خلال دراسة الآيات العلميّة المعالجِة للمشكلات الراهنة توجيهٌ للمجتمع المسلم وحلٌ لمشاكله وفق السنن القويم، وفيه إصلاحٌ لمسالك المناهج الفكرية ترتيباً للأهمّ فالمهم، بدءًا بأولوياته، حسب ما يقيم الحياة ويضمن جودتها، استناداً على ما ينفعه في حاله ومآله، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: (قصد الشارع: المحافظة على الضروريات وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينات، وهو عين ما كلف به العبد. فلا بد أن يكون مطلوبًا بالقصد إلى ذلك، لأن الأعمال بالنيات" ثم، لما كان الإنسان مستخلفًا عن الله –في نفسه وأهله وماله وكل ما وضع تحت يده– "كان المطلوب منه أن يكون قائمًا مقام من استخلفه: يجري أحكامه ومقاصده مجاريها)[٣١] ، وبهذا أكون قد أوضحتُ جانباً يسيراً من جوانب العلاقة بين المقاصد

٢٩ بن نبي، مالك. ١٩٨٦/١٤٠٦. مشكلات الحضارة شروط النهضة. نشر دار الفكر بدمشق. ص ٧٥.

٣٠ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. ١٤٠٨/ ١٩٨٨. المقدمة. نشر دار يعرب بسوريا. ٨٧٧/٣.

٣١ الريسوني، أحمد. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ١٤٤/١.

والواقع، اســـترشـــاداً بما ورد في كتب الائمة الســـابقين، وقراءات الأعلام المعاصـــرين، ومن الله التوفيق والسـداد[٣٢] .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

٣٢ فيما ورد في هذا المبحث انظر: المخلافي، نشوان عبده. التفسير المقاصدي للقرآن الكريم بحث مقدم في المؤتمر القرآني الدولي السنوي، جامعة ملايا، ماليزيا. ١٤٣١-٢٠١٠

أسعد، علي محمد. التفسير المقاصدي للقرآن الكريم. بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامي المعاصر. ١٤٣٨/ ٢٠١٧.

القحطاني، مسفر علي. الوعي المقاصدي، قراءة معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة. المكتبة العربية للأبحاث والنشر: لبنان. ١٤٢٩/٢٠٠٨.

المبحث الثالث

التفسير المقاصدي العلمي في ميزان التشريع.

يستمدُّ التفسير قداسته من قداسة المادة التي يجلّي عنها، حيث أن مهمة التفسير تبيين المعاني، وتوضيح المراد منها للفهم البشري القاصر، ذلك أن الهدف الأساسي من نزول القرآن الكريم الهداية ثم العمل، ولن يتمّ هذا إلا بفهم مقاصده.

بناءً على ما سبق قد يظهر في الذهن تساؤلٌ من قبيل: أن المعروف الذي اتفق على مشروعيته أعلام الأمة عن التفسير توضيحُهُ للمعاني باختلاف التعاريف فيما بينهم زيادةً ونقصاناً، ويبقى فهم المقصد منوطاً بالتدبّر، إذ تتكشّف المعاني مع طول التمعّن، فهل التفسير المقاصدي الواقعي بهذا المسمى مشروعٌ أيضاً؟

مستعيناً بالله أستمدُّ الإجابات من نصوص الآيات القرآنية والسياقات التي تناقش الفهم الإنساني والقدرة العقلية التي ميّز الله بها بني آدم، حيث نقرأ قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[٣٣]، وقوله: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[٣٤]، وقوله: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)[٣٥]، وكثيرٌ من الآيات التي تنمّي جانب العقل وتدفع الإنسان إلى تربية الفكر دمجاً بين فهم كتاب الله المسطور والكون المنظور.

والتدبّر لغةً النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر؛ إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب[٣٦].

---

٣٣ سورة محمد، الآية ٢٤.

٣٤ سورة ص، الآية ٢٩.

٣٥ سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٣٦ الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات، ٥٤/١.

أمّا المراد الاصطلاحي لكلمة تدبّر ففيه معانٍ كثيرةٍ منها: أي يتفكرون في معانيه، لتظهرَ أدِلَّتُه وبراهينه، وفيها حضّ على التدبر والتفكر فيه[٣٧]، وقال فيه ابن قيم الجوزية رحمه الله: هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تأمّل[٣٨] .

وصفة مبارك الواردة في الآيات فتعني زيادة الخير والنماء، فهو إما يرشدنا إلى خير، وإما يحذرنا من شر، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل، ولا بركة أعظم من ذلك[٣٩] .

يلحظ المتتبع لكتاب الله عنايتَهُ بالتفكّر، حيث أن القضيّة الكبرى هي إعمال العقل لاستنباط الغايات، وذلك في سياقٍ إلهيٍ محكم دون تضادٍ بين آيةٍ وأخرى، فالمشرّع واحد، ولو كان من عند غير الله لوجدنا فيه التخبّط والاختلاف.

وأمّا ما يكون من اختلاف ظاهر الآيات فلا يعني اختلاف بواعثها، ولكن لكل آية حكمتها وهدفها في التربية، فيكون الاختلاف الظاهري هنا تبعاً لاختلاف واقع التنزيل، كما قال الإمام البيضاوي: (كان بعض العلماء يعد القرآن كالكلمة الواحدة، وذلك لاتساق معانيه، واتفاق الرسالة في كل أجزائه، وبناء بعضه بعضاً وإن تكررت أساليبه)[٤٠].

ورد في كتاب دراسات علوم القرآن تخريجٌ شرعي لجواز هذا النوع من التفسير، عزاها المؤلف إلى ثلاثة:

---

٣٧ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر. ١٤٠٨-١٩٨٨. إعجاز القرآن ومعترك الأقران. دار الكتب العلمية: بيروت. ٤١٦/٣.

٣٨ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. ١٤١٦-١٩٩٦. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. دار الكتاب العربي ببيروت. ٤٤٩/١.

٣٩ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. ١٤٠٤- ١٩٨٤. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر: تونس. ٢٥٣/٢٣.

٤٠ فخر الدين الرازي، محمد عمر بن الحسن. ١٤٢٠-٢٠٠٠. التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربي بيروت. ٩٥/١.

أمّا عن أولها فأورد قوله تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

وثانيها فقد استدلّ بالحديث الشريف حين دعا الرسول ﷺ لابن عباس فقال: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ولو كان التفسير مقصورًا على النقل ولا يجوز الاجتهاد فيه لما كان لابن عباس مزية على غيره.

وثالث الأدلة فالصحابة –رضي الله عنهم– اختلفوا في التفسير على وجوه، فدل على أنه من اجتهادهم أخذ الوجه الراجح المناسب للرسالة، والمقام، بما يحقق القصد الشرعي الذي جاءت الآيات في صدده، وهذا ذاته ما تنتهجه الباحثة أثناء تحرير هذا الفصل، استصحاباً لمشروعية التفسير المقاصدي وربطه بالواقع[٤١].

واستناداً على المقصد الأعلى العام الذي تنادي به الشريعة وهو إصلاح العالم، وإصلاح الدنيا بالدين فقد تتبعت الباحثة الآيات الدالة على هذا، وهي مبثوثة في كتاب الله، أقسمها إلى ثلاثةِ أقسام وهي في الاتي:

القسم الأول جاءت أدلته صريحةً بقصد الصلاح، ومحاربة الشرور، وفي مثاله قوله تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)[٤٢]، وقوله: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)[٤٣].

٤١ الرومي، فهد عبدالرحمن. ١٤٢٤-٢٠٠٣، دراسات في علوم القرآن. بدون دار نشر، وحقوق الطبع محفوظة للمؤلف. ١/١٦٠.

٤٢ سورة محمد، الآية ٢٢.

٤٣ سورة الأعراف، الآية ٥٦.

أما القسم الثاني فهي آيات تؤكد أن الصلاح المراد بعد الصلاح الكلي هو استقامة أحوال الناس وشؤونهم وأمور حياتهم، ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[٤٤]، (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)[٤٥].

أما القسم الأخير فجاءت فيه الأدلة بالتمليح إلى القصد الأممي العالمي لا التصريح، وأنّ هذا الصلاح هو الهبة الكبرى التي امتنّ الله بها على الخلق جميعهم، وفيه قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[٤٦]، وقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)[٤٧]، واستخلاف اللهِ للمسلمين في الأرض الغاية الكبرى، لذلك سخر الخلق كله، وندب الإنسان للعمل والنهوض، وحمّله الأمانة، وأناط إليه تعمير الكون باكتشاف علائقه، وأسبابه وخيراته، ومن جهةٍ أخرى فإن التراجع عن هذا التكليف هدرٌ للطاقات، ووأدٌ للخيرات، وضياع للرسالة، ولولا ذاك التسخير كله ما كانت منحة الله وهبتهُ الكبرى في هذه الدرجة الرفيعة من الإحاطة والاهتمام، حين اختصّ بها الإنسان دون غيره من المخلوقات تشريفاً وتكليفاً.

---

٤٤ سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

٤٥ سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

٤٦ سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

٤٧ سورة النور، الآية ٥٥.

المبحث الرابع

نماذج من عناية العلماء بالتفسير المقاصدي

(الإمام ابن العربي، الإمام ابن قيم الجوزية، الشيخ محمد رشيد رضا، الشيخ ابن سعدي) أنموذجاً

تمهيد:

منذ عهد الرسالة الأولى أولى الصحابة والتابعون – رضي الله عنهم أجمعين- عنايتهم بالقرآن وعلومه، وأفردوا المؤلفات والدواوين، تفسيراً وإيضاحاً، وإذا كان الكشف عن معاني كلمات القرآن يسمّى بالتفسير، فإنّ هناك مجالٌ آخر يبحر في القرآن ويتناوله، ألا هو جانب إعمال المقاصد الشرعية للكشف عنها خلال تفسير الآيات، إذ لا يمكن تحصيل الفهم الكامل بمعزلٍ عن إدراك الغاية والقصد.

ولقد كان لبعضٍ من المفسّرين المعاصرين ومن سَبَقهم من القرون أيادٍ بيضاء حدّدت معالم هذا المجال، واجتهاداتٌ قيمة تشهد بها المكتبات الإسلامية ولا تخفى أبداً على طلاب العلم الشرعي، لكنها لم تكن بالقدر الواسع الذي حظي به علم التفسير.

ولا يزال العلم يتسع يوماً فيوماً، وهذه من عظيم عطايا الله لعبادهِ، فهو رحِمٌ بين أهله، ويظلّ المنبع الأول للمسلمين القرآن الكريم، إذ فيه المناهج المعتدلة، والقيم السامية، والقواعد الثابت، فمنه يغترف الجميع، ثم يستقلّ كلُّ صاحب فكرٍ بما يفيد ويستنبط، وهنا غيضٌ من فيضٍ باستنباط مقاصد التشريع خلال مناقشة الآيات القرآنية ذات الدلالات العلمية، تأكيداً على أنّ كتاب الله النبع الصافي الذي يروي الظامئين.

من أجل هذه المرتبة السامية تناول ثلةٌ من العلماء الذين نذروا أنفسهم وأوقاتهم وجهودهم لخدمة كتاب الله، قراءةً وفهماً، تفاعلاً وتعاملاً، حتى أنه لم يحظَ كتابٌ بمثل ما حظي به دستورنا، وهذا شرفٌ كبير من الله عزّ وجل، ونورٌ لا يأفل هديه حتى تُورث الأرض ومن عليها.

ولعلّي في هذا المطلب أتحدث بشيءٍ من الإيجاز عن بعض العلماء الذين كانت لهم إشارات وإرشادات علميّة في الحديث عن المقاصد الشرعية خلال تفسير القرآن، وبعد بحثٍ ودراسة رأيت إيراد أربعةَ نماذجَ لعلماءٍ صنّفوا على مرّ العصور، وهم: الإمام ابن العربي، الإمام ابن قيم الجوزية، الشيخ محمد رشيد رضا، الشيخ ابن سعدي، أعرض خلالها مناهجهم، وأسلوبهم المقاصديّ خلال تفسير الآيات، وطرق تناولهم للأفكار، راجيةً من الله العون والسداد.

١- الإمام ابن العربي -رحمه الله-ت ٤٣٩هـ:

هو أبوبكر، محمد بن عبدالله بن محمد، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي، الحافظ المتبحّر، ختام علماء الأندلس، وأخر أئمتها وحفاظها، وكان من أهل التفنن في العلوم والجمع لها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، عمل ف القضاء مدة، ففتح الله على يديه، ثم انصرف عنه وأقبل على نشر العلم وبثّه[٤٨]، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أئمة المالكية، وكان يدافع عنها، ومع ذلك فهو يتّبع الدليل، ويأخذ بما اهتدى إليه من الاجتهاد، ولا يتردد في مخالفة المهب إذا ساقته إليه الأدلة، وُلد عام ٤٣٥، وكانت وفاته عام ٤٩٣ رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً[٤٩]. اهتمام الإمام الحافظ ابن العربي بمقاصد الشريعة في تفسيره أحكام القرآن:

٤٨ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. ١٣٩١-١٩٧١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. نشر دار صادر ببيروت. ٢٩٧/٤.

٤٩ الذهبي، محمد بن عثمان بن أحمد. ١٤١٩- ١٩٩٨. تذكرة الحفاظ. دار الكتب العلمية ببيروت. ٦٢/٤.

يُعتبر الحافظ ابن العربي من الأعلام البارزين الذين حملوا التفكير المقاصدي، واستصحبوه في مؤلفاتهم، والمتصفّح للكتب التي ألّفها الإمام الحافظ يقف على كثافة المادة العلميّة المقاصدية، مع دقّة العرض والتحليل، حتى يكاد أن يكون عَلَماً في هذا الفنّ، إلّا أنه لم يفرده في مؤلفٍ خاصّ.

وقفتُ أثناء الاستزادة على بحث ماجستير عنوانه: مقاصد الشريعة عن ابن العربي، يقول فيه الباحث: (أردت أن أبرز ابن العربي من الوجهة المقاصدية، لأؤكد أن موضوع المقاصد لم يظهر بظهور الشاطبي أو ابن عبد السلام كما يرى كثير من الناس، وإنما ظهر قبلهما في اجتهاداتٍ فقهية، ومباحث أصولية)[٥٠].

ذلك على الرغم من أن ابن العربي لم يكن يقصد إفرادها في كتب متخصصة في كتبٍ متخصصة كما فعل الإمام الشاطبي، ولكنها توجد في كتاباته التفسيرية، والحديثية، والفقهية، والأصولية، فهو حيثما كتب كانت المقاصد ترافقه، وفي هذا يقول نوار بن الشلي: لا يكلفك ابن العربي وأنت تبحث عن المقاصد وعرض استحضارها في فكره وفقهه أي عناء، فهو يصرح بما لا يدع مجالاً للتأويل أنه ممن يلاحظ المقاصد ويعتبرها في مناسباتٍ مختلفة[٥١].

وبعد هذا التعريف الموجز بالإمام ابن العربي وتبنّيه المقاصد أعرض بعضاً من النماذج المقاصدية الواقعيّة الواردة في ثنايا مؤلفه الشهير أحكام القرآن، وبالله التوفيق.

---

٥٠ مجيب. عبدالعظيم.١٤١٢- ١٩٩٢. مقاصد الشريعة عند ابن العربي، رسالة ماجستير. ٣.

٥١ ابن الشلي. نوار. ١٤٢٨-٢٠٠٧. لمحات في الفكر المقاصدي عند الإمام ابن العربي. نشر جامعة الأمير عبد االقادر للعلوم الإسلامية بقسنطية. ٢-٣

تطرّق الإمام ابن العربي –رحمه الله– إلى المقاصد الضرورية، التي لا تستقيم حياة بدونها، وضمّن تفسيره الآيات قراءَته المقاصدية استنباطاً واستدلالاً، وركّز خلال ذلك على المقاصد الضرورية الخمس تلك (التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدت مصلحة لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامةٍ بل على فسادٍ وتهارج، وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم)[٥٢] وهي: حفظ الدين، النفس، النسل، المال، العقل.

أ. فيما يتعلق بالمقصد الأول وهو حفظ الدين:

في تفسير قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)[٥٣]، وقوله تعالى: (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)[٥٤]، قال الإمام ابن العرب في تفسيره: أن الفتنة هنا هي الكفر، فإذا كفروا في المسجد الحرام، وعبدوا فيه الأصنام، وعذّبوا فيه أهل الإسلام، ليردّوا الناس عن دينهم فكلّ ذلك فتنة، والفتنة في اللغة هي الابتلاء والاختبار، وإنما سُمّي الكفر فتنة لأن مآل الابتلاء كان إليه، فلا تنكروا قتلهم وقتالهم، فما فعلوا من الكفر أشد ممّا عابوه[٥٥].

وفي تعليقٍ له على قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[٥٦] قال: الآية تتضمن عموم نفي إكراه الباطل، أمّا الإكراه بحقّ فإنه من الدين، وهل يقتل الكافر إلا على الدين؟!

والذي دعا الإمام ابن العربي لتفسير الآيات من هذا المنطلق نظرتُهُ إلى المقصد الأول، الذي هو رأس الضرورات الخمس.

---

٥٢ الشاطبي، إبراهيم بن موسى. ١٣٩٥–١٩٧٥ الموافقات. نشر دار ابن عفان بالقاهرة. ١٨/٢

٥٣ سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٥٤ سورة البقرة، الآية ١٩١.

٥٥ ابن العربي، محمد بن عبدالله. ١٤٢٣–٢٠٠٣. أحكام القرآن. دار الكتب العلمية بيروت. ١٥٤/٣، ٣١٠/١.

٥٦ سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

ب. فيما يتعلق بالمقصد الثاني وهو حفظ النفس:

قال تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[٥٧]، قال الإمام هنا: احتجّ العلماء رحمهم الله بهذه الآية على أحمد بن حنبل في قوله: لا تُقتل الجماعة بالواحد، لأن الله شرط في القصاص المساواة، ولا مساواة هنا بين الواحد والجماعة، أما وقد قال تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)[٥٨]، إذ أن مراعاة القاعدة أولى من مراعاة اللفظ، ولو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا واحداً لم يُقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم، وبلغوا الأمل من التشفي منهم، وقال ذلك أن المراد بالقصاص قتل من قتل، كائناً من كان، ردّاً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة افتخاراً واستظهاراً بالمال والجاه والمقدرة، فأمر الله تعالى بالعدل والمساواة، وذلك بأن يُقتل من قتل[٥٩]، وهكذا كانت فكرة الإمام ابن العربي، ومن خلال تتبّع تفسيره للآيات يتبيّن لنا مراعاته لمقصد حفظ النفس، والتأكيد على ذلك.

ج. فيما يتعلق بالمقصد الثالث وهو حفظ النسل:

قال تعالى: (فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ)[٦٠]، فقوله تعالى: (مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ) يعني عفائف لا زانيات، وإنما وضع الله هذا الشرط صيانةً لعلماء الحلال عن الحرام، فإن الزانية لا يجوز عندنا نكاحها حتى تستبرأ، ففي الحديث قال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقِ ماءه زرع غيره)[٦١]، وفي نداء منادي رسول الله ﷺ: لا تُوطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تحيض، في وطءٍ ونسبٍ لهما حُرمة، وذلك في وطء الكفار، لكن إن لم يكن

---

٥٧ سورة البقرة، الآية ١٧٩.

٥٨ سورة المائدة، الآية ٤٥.

٥٩ ابن العربي، محمد بن عبدالله. ١٤٢٣-٢٠٠٣. أحكام القرآن ٩٥/١.

٦٠ سورة النساء، الآية ٢٥.

٦١ الهرري الشافعي، محمد الأمين عبدالله. ١٤٣٠-٢٠٠٩. الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم. نشر دار المنهاج بالمملكة. ٣٧/١٦.

للماء المســـتقر في الرحم فللماء الوارد عليه حرمة، فكيف يخرج ماء محترم بماءٍ غير محترم، وفي ذلك خلط الأنساب الصحيحة بالمياه الفاسدة[٦٢]، ويتضّح في مناقشته هنا أنه راعى باهتمامٍ هذه المسألة، وهنا حفظ النسل.

د. فيما يتعلق بالمقصد الرابع وهو حفظ المال:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَـــمًّى فَاكْتُبُوهُ)[٦٣] ، قال: المســـألة الثانية والخمسون قال فيها علماؤنا رحمهم الله: لما أمر الله بالتوثيق بالشهادة على الحقوق كان ذلك دليلاً على مراعاة المال وحفظه[٦٤]، يقوّيه الحديث الذي كَرِه فيه الرسول ﷺ (قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[٦٥] ، وفي هذه النصوص استحضارٌ للمقصد الرابع وهو حفظ المال.

هـ. فيما يتعلق بالمقصد الخامس وهو حفظ العقل:

قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)[٦٦]، فسّر الإمام ابن العربي قوله تعالى: (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) وذلك على ثلاثة أقوال: أنها ربح التجارة، وأنها الســـرور واللذّة، وأنها منفعة البدن –والأخير قولٌ للمبتدعة–، والراجح الصـــحيح أن المنفعة هنا هي الربح، وأمّا اللّذة فهي مضرّة عند العقلاء، لأن ما تجليهِ من اللذة لا يفي بما تذهبه من التحصيل والعقل[٦٧]، وهنا يتضّح للقارئ كيف أن الإمام ابن العربي –رحمه الله– أخذ بالمقاصد اعتباراً واستنباطاً أثناء تفسيره الآيات.

---

٦٢ أحكام القرآن، ٥١٤/١.

٦٣ سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٦٤ المرجع السابق، ٣٤٧/١.

٦٥ الشيباني، أحمد بن حنبل. ١٤٢١-٢٠٠١. مسند الإمام أحمد. نشر مؤسسة الرسالة ببيروت. ٣٣٦/١٤.

٦٦ سورة البقرة، الآية ٢١٩.

٦٧ ابن العربي، محمد بن عبدالله. ١٤٢٣-٢٠٠٣. أحكام القرآن ٢١٠/١.

٢- الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- ت ٧٥١هـ:

هو أبو عبدالله، شمس الجين محمد بن أبي بكر، بن أيوب بن سعد الزرعيّ الدمشقي، المشهور بابن قيّم الجوزيّة، كان ميلاده عام ٦٩١، رَبا في بيت علمٍ ودين، فأورثته بيئتُهُ الأخلاق الحميدة، والفطنة والذكاء، وحسن الفهم والمنطق، وبدأت علامات نبوغه تظهر في سنٍ مبكّرة.

تتلمذ الإمام على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، كما تتلمذ على يد والده، وعلى يد أبو العباس أحمد النابلسي، وعلى إسماعيل مجد الدين الحرّاني-رحمهم الله جميعاً-.

تخرّج على يده الإمام الحافظ ابن كثير، والعلّامة ابن رجب الحنبلي، والعلّامة الفيروز أبادي، وعددٌ من المصنفين والعلماء الذين بذلوا الجهد في سبيل الله ثم نشر العلم.

كانت فترة معيشته -رحمه الله- نهاية القرن السابع، ومنتصف الثامن، وهي فترةٌ زادت فيها القلاقل، حيث ظهرت الخلافات المذهبية، والاضطرابات والفتن، وقَوِي المبتدعة وعبّاد القبور، إضافةً إلى الصراع على السلطة، وهو السبب الكبير الذي جرّ وراءه المشكلات الأخرى.

أثّرت هذه المراحل المتقبلة على الإنتاج العلمي للإمام ابن قيم الجوزية، فتجلّت غيرته على الدين، وحرصه على الإصلاح، ونصحه للأمة، محاولةً للعودةِ بها إلى الطريق المستقيم، فارتبط بالوحي منه يأخذ وإليه يرد، لم يتعصّب إلى جهةٍ، بل كان مجتهداً مستنبطاً، باذلاً ما يستطيعهُ في سبيل رأب الصدع وجمع كلمة الأمة. وبالجملة: فقد عاش الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- عصراً مكتظّاً بالتقلّبات، مليئاً بالتفاصيل، فأدرك حقيقة واقعه، ثم أهدى لنا خلاصة فكره واستنباطاته، وهذا الظاهر لمن يتصفح مصنّفاته، حتى توفّاه الله عام ٧٥١، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً[٦٨].

٦٨ انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك. ١٤٢٠-٢٠٠٠. الوافي بالوفيات. نشر دار إحياء التراث، بيروت. ٢٨٨/٣

منهج الإمام ابن قيم الجوزية في التعامل مع مسألة تنزيل الواقع على الآيات، والتكييف المقاصدي لها:

سبقت الإشارة إلى منهج بعض العلماء الذين اتخذوا المقاصد الشرعية سبيلاً للكشف عن مكنونات النصوص، وهذا من فهم الحال، وربطه ببعضه للوصول إلى الحكم السليم وفق المستجدات، إذ تتنوع المواقف والقضايا، وعلى الرغم من تنوّعها إلّا أننا نجد الحل المستبين لها في الوحيَيْن.

هذا وقد كان للإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله– منهجاً واضحاً في التعامل مع مستجدات العصر، بالتكييف الصحيح لما يعنُّ من مسائل، صحيحٌ أن كثيراً من المصنفين لم يصنّفوا مؤلفاً خاصّاً فيما يتعلق بالكشف عن مدلولات النص على ضوء المقاصد، لكنهم اتبعوا هذا المسلك، فكان ظاهراً في منهجهم، وقد كان للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أسلوباً يظهر من خلال أقواله وكتاباته وتقاريره، ألخّص تعامله مع النصوص والواقع فيما يلي:

أ. إنكاره على من فصل بين القرآن والواقع:

لأن الواقع يدخل تحت نصوص القرآن، وإنكار ارتباطهما ببعضهما يبني حاجزاً بين المر واستفادته من كتاب الله، وبالتالي قصورٌ في الرؤية العقليّة للبتِّ في الأمور، إذ لاتزال طوائف غيّبت كتاب الله عن واقعها، فهي تتخبّط في الحَلَك!

في تفسير قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)[٦٩] يقول ابن قيم الجوزية: فكفى بهذه الآية

المقريزي، أحمد علي عبدالقادر. السلوك لمعرفة دول الملوك.١٤١٨-١٩٩٧. دار الكتب العلمية، بيروت.٨٩/٣.

الحنبلي أبو الفلاح، عبدالحي أحمد بن محمد. ١٤٠٦-١٩٨٦. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. نشر دار ابن كثير، دمشق. ٢٨٧/٨.

٦٩ سورة سبأ، الآية ٢٢

نوراً وبرهاناً، ونجاةً وتحريداً للتوحيد، وقطعاً لأصـــول الشـــرك وموادّه لمن عقلها، والقرآن مملوءٌ من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشـعرون بدخول الواقع تحته، ويظنون في نوعٍ وفي قومٍ قد خلوْا من قبل لم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هم مثلهم أو هو شرٌ منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك[٧٠].

ومن هنا نســتطيع أن نلتمس تعامل الإمام ابن قيم الجوزية مع النصــوص، والواقع باســتجلاء مقاصده الظاهرة والخفية.

ب. تأكيده على أن المعتبر هو عموم اللفظ، وأن التعامل الســليم يكون في فهم الواقع على ضوء الوحي والنصوص الشرعية:

كما هي القاعدة الأصــولية المعروفة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصــوص الســبب، فكل دعوى إلى تخصـيص معاني القرآن بعصرٍ أو واقعةٍ معينة هو مسـلكٌ مجانبٌ للصـواب، مؤدٍ إلى تعطيل النصـوص، وتضــييق الاســتدلال بها، ففي قوله تعالى: (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْــرِكَةً)[٧١] ردّ الإمام ابن قيم الجوزية على من زعم أن هذه الآية جاءت لواقعةٍ بعينها، ولا تنطبق على باقي الوقائع، فقال: (وهذا أيضاً فاسد، فإنّ هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول، فالقرآن لا يقتصر به على محالِّ أسبابه، ولو كان ذلك لبطل الاســـتدلال به على غيرها)[٧٢]، ومعنى ذلك أن الآية تنطبق على جميع الصـــور المشابهة للحالة .

---

٧٠ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. ١٤١٦-١٩٩٦، (مرجع سابق). ١/ ٢٨٩.

يسري، السيد محمد. ١٤١٤-١٩٩٤، بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيمالجوزية. نشر دار ابن الجوزي: الرياض. ٤٣٥/٣.

٧١ سورة النور، الآية ٣

٧٢ بدائع التفسير، ٢٤٤/٣.

ج. دعوته الحثيثة الموجّهة إلى طلبة العلم، لتكييف الواقع حسب النصوص الشرعية:

ففي تفسيره لقوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[٧٣] قال هنا: (نزلت هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث تلك الآفات والعلل كلّ وقت، في الثمار والزرع والحيوان)[٧٤].

وقد كان رحمه الله يصرّح حيناً باستظهاره فقه الواقع وتجلية المقاصد، فيقول رأيتُ وشاهدتُ، ويلمّح في أحايين كثيرةٍ أخرى، كقوله: وهذا هو حال أكثر الخلق، ومن تأمّل أحوال عصره، ومن نظر في أحوال الناس... وغيرها من العبارات الواردة في مصنّفاته.

وهكذا فقد جعل الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله فهم الحال وفق واقع النص أسلوبه المتبع، دون تكلّفٍ، ودون تحميل النصِّ ما لا يحتمل، ومصنّفاتُهُ خيرُ شاهدٍ على هذا المنهج المستنير.

٣- الإمام محمد رشيد رضا -رحمه الله-ت١٣٥٤ هـ:

هو محمد رشيد علي رضا محمد شمس الدين بن خليفة القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، أحد رجال الإصلاح الإسلامي، كتب في الحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

وُلِد عام ١٢٨١هـ، ونشأ في قلمون الشام، وتعلّم فيها ونظم الشعر هناك، وكتب بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر، فلازم شيخه محمد عبده، وتتلمذ على يديْه، ثم بدأ في كتابة مجلته الشهيرة "المنار" التي عُرِف بها وعُرِفت به، وكانت منبراً لبثّ آرائهِ وأفكاره الإصلاحيّة والدينية والاجتماعية.

---

٧٣ سورة الروم، الآية ٤١

٧٤ بدائع التفسير، ٣/٤٩٤.

أصبح الشيخ مرجعاً للفُتيا في التأليف بين الشريعة وبين الأوضاع المعاصرة، وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، وعاد إلى مصر لاستكمال مسيرته التعلمية.

ألّف في الفقه والاجتماع والسيرة والعقيدة وفي معظم الفنون، ومن أبرز ما اشتهر له تفسير المنار الذي كان في مجلّته، صدر له منه ٣٤ مجلّداً، وكلّها تناقش تفسير الآيات من أوجهٍ كثيرة.

كانت حياته -رحمه الله- حافلةً بالتجديد، إلى أن توفّاه اللهُ في مصر عام ١٣٥٤هـ، وكان آخر ما فسّر قوله تعالى: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[٧٥]، بعثَ في الأمة روحاً وقّادة، لم يجد وسيلةً إلّا وسلكها، مادامت تحقق الغرض وتوصل إلى الهدف[٧٦].

ومن خلال الاستعراض لأبرز المؤثرات على حياة الشيخ العلمية فقد كانت ملازمته الدائمة لشيخه محمد عبده أثرٌ في آرائه الإصلاحية التي ساهمت في المجال الإرشاديّ والدعوي، وقد بيّن الشيخ غرضه من كتابة مجلّتهِ المنار قائلاً: (فقد أنشأنا هذا المنار في العشر الأخير من شهر شوال عام ١٣١٥ هـ، وبينّا غرضنا منه وهو الإصلاح الديني والاجتماعي لأمتنا الإسلامية، وبيان اتفاق الإسلام مع العلم والعقل، وموافقته لمصالح البشر في كل قطرٍ وكلّ عصرٍ، وإبطال ما يورد من الشبهات عليه، وتفنيد ما يُعزى من خرافاتٍ إليه[٧٧].

---

٧٥ سورة يوسف، الآية ١٠١.

٧٦ انظر: الزركلي، خيرالدين محمود محمد علي. ١٤٢٢-٢٠٠٢. الأعلام، دار العلم للملايين بيروت. ٥/ ١٢٦.
الزبيدي، وليد أحمد الحسين. ١٤٢٤-٢٠٠٣. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، دار الحكمة بالقاهرة. ٢٥٣٨/٢.

٧٧ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٣٥/ ١٥٣.

منهج الشيخ محمد رشيد رضا في التعامل مع مسألة تنزيل الواقع على الآيات، والتكييف المقاصدي لها:

تنوّعت أساليب الشيخ في تناوله لتفسير الآيات، فقد كان يكتب ما يمليه عليه عقله، وما يهتدي إليه بعد ملاحظاتهِ واستنباطاته، فقد وقف على معظم السور، ووضع أُسساً جديدةً، ومعالمَ راسخة، وفيما يلي بعضاً ممّا قعّده الشيخ أثناء تفسيره.

أ. الاهتمام بمقاصد الشريعة التي أكّدها القرآن، وأجلّها الإصلاح والهداية:

ففي سورة الفاتحة علّق الشيخ أنها تحتوي على خمسةِ مقاصد، **أولها** التوحيد، لأن الناس كانوا وثنيين، **ثانيها** وعدٌ وتبشير بحسن المثوبة لمن أخذ به، ووعيدٌ لمن لم يأخذ به وإنذارٌ بالعقوبة، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيشمل نعيمّ الدنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد يشمل نقمهما وشقاءهما، **ثالثها** العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، **رابعها** بيان سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، **خامسها** قصص من وقف عند حدود الله، وأخذ بأحكام دينه ظهرياً، لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين، ومعرفة سنن الله في البشر[٧٨].

ب. تقسيم القرآن حسب المقاصد والأفكار التي يدعو إليها:

بذل الشيخ وسعه في تقسيم الآيات إلى مقاصد متعددة، تتناول جوانب الحياة الواقعية، وتحاول حل مشكلات المجتمع الواحد، وسأورد هنا بعضاً من هذه المقاصد التي تبنّاها الشيخ –رحمه الله– ومنها:

---

٧٨ المرجع السابق، ٣٦/١ .

مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان، وحكمة ما فيه من تكرار في الهداية وإعجازه بالبيان، مقاصده في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التي دعا إليها الرسل رضي الله عنهم، المقاصد فيما جعله البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل، المقاصد في إكمال المنفعة البشرية من الأفراد والجماعات والأقوام، المقاصد في الإصلاح الإنساني والاجتماعي والسياسي والوطني، المقاصد في الإرشاد إلى الإصلاح الحالي، مقاصده في إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر كفطرةٍ عامة تناقش فلسفة الحرب والسلم والمعاهدات، مقاصده في حفظ الحقوق، وإعطاء النساء حقوقهنّ الإنسانية والدينية والمعرفيّة[٧٩].

ج. تناول الشيخ للسنن الإلهية:

كان للسنن الإلهية ظهورٌ كبيرٌ في ثنايا تفسير المنار، فقد أدرك الشيخ أهمية العلم بها فقال: (والعلم بسنن الله من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلّنا على مآخذهِ من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها)[٨٠].

(فالسنن هي القوانين الإلهية الحاكمة في الواقع، ومن ثمّ فإن دراسة الواقع ضرورة لفهم السنن الإلهية، إذ أنه لا تعارض بينهما، لأن الواقع محلّ لتجليات تلك السنن، وبإدراكها معاً تتم القراءات لكتاب الله وللكون بكلّ ما فيه)[٨١]. والخلاصة أن الشيخ رحمه الله كان ولا يزال واحداً من أعلام الإصلاح الذين سطعوا في القرن الرابع عشر الهجري، جزاه الله عن ما قدّم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

٧٩ انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا.

رضا، محمد رشيد. ١٤٠٦-١٩٨٦ الوحي المحمدي. مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، ١٦٦/ ٣٤١ .

٨٠ تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ١٣٩/٤.

٨١ عاشور، مجدي محمد محمد، ١٤٢٨-٢٠٠٧. السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصولٌ وضوابط. دار السلام للطباعة والنشر. ١٣١.

٤- الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- ت ١٣٧٦هـ:

هو الشيخ العلّامة أبو عبدالله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي، وُلِد في منطقة عنيزة بالقصيم، عام ١٣٠٧هـ، عاشَ -رحمه الله- يتيماً، فقد توفيت والدته وعمره أربع سنوات، ثم توفي والدخ وعمره سبع سنوات، لكنّه نشأ نشأةً صالحة، واشتهر منذ حداثة سنّهِ بذكائه وفطنته، وحفظهِ للقرآن وهو لايزال في الحادية عشر من عمره، واجتهد في طلب العلم، حتى جلس للتدريس وهو في الثالثة والعشرين من العمر.

كان ذا خلقٍ مشهودٍ وتواضعٍ جمٍ، وكان يقضي معظم وقته في البحوث العلمية والاجتماعية، متفقداً حال الضعفاء والمساكين، مادّاً يد المعونة لكلّ غريب، إذ عُرف عنه حبّ الخير، والأدب، والعفّة والنزاهة.

أمّا عن مكانته العلمية فقد كان -رحمه الله- ذا علمٍ بالفقه وأصوله، ابتدأ مسيرته العلميّة وهو حنبلي المذهب، ثم بعد مطالعاته ودأبهِ على قراءة كتب الإمامَيْن ابن تيمية وابن قيم الجوزية -رضي الله عنهم جميعاً- صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي، بل أصبح يرجّح ما استقرّ عليه الرأي بالدليل دون التقيّد بمذهبٍ معيّن، دون طعنٍ في المذاهب أو العلماء.

له مصنفاتٌ عظيمة في مجالاتٍ شتّى، ولعلّ أبرز ما اشتهر عنه تفسيره المسمّى بتيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان، وهو من أعظم الكنوز التي تحويها المكتبة الإسلامية، لمكانته المرموقة، وفوائده البديعة.

عاصر الشيخ ابن سعدي مرحلة التقلبات السياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية ذلك الزمان، حيث خلّف هذا النزاع سقوط الخلافة الإسلامية وقيام الثورة العربية الكبرى، وتقسيم الدولة الإسلامية إلى دويلاتٍ متناحرة، قامت على أثرها الحرب العالميّة الأولى.

في ظلّ هذه القلاقل كان هناك نشاط ملحوظ في الحركة التعليميّة، فقد نشأت في نجد أول مديرية للتعليم، وأول وزارة للمعارف دعماً للنشاط الثقافي والمعرفي.

ونظراً لهذه التقلبات السياسية والتعليمية فقد نتج عنها غزارة الأفكار، ودقّة الاستنباطات، وشمولية الرؤية، حيث أن الواقع صقل فيه من البيان، وآتاه الله به نوراً يضيء ساطعاً لا ينطفئ مداه[٨٢].

المنهج الذي اتبعه الشيخ ابن سعدي –رحمه الله– في تفسيره تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان:

استعرض الشيخ رحمه الله المسائل الفقهية الأصولية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلميّة، والطبيّة، وكان له منهجاً متّبعاً، وبما أنّ الجهد البشريّ لا يوسم بالكمال كان للشيخ جوانبُ أثراها فَطَغَتْ على جوانبَ أخرى، وعلى كلٍ فقد كان –جزاه الله خيراً– ممن بذل فأجاد وأفاد.

كان من أبرز مناهج الشيخ استهلاله التفسير بمجموعة الفوائد التي تعين القارئ على فهم مرادفات كتاب الله، وهي فوائد متنوّعة، تنافس جميع احتياجات المجتمع الواحد بكل أطيافه، وهي مستقاةٌ من مجموعة الفوائد لابن قيم الجوزية –رحمهم الله أجمعين–

٨٢ انظر: القاضي، محمد عثمان صالح. ١٤٠٠-١٩٨٠. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين. مطبعة الحلبي بمصر. ٢١٩/١، آل الشيخ، عبدالرحمن بن عبد اللطيف.١٣٩٤-١٩٧٤. مشاهير علماء نجد وغيرهم. دار اليمامة بمصر. ص٢٥٦.

استناداً إلى ما فسّر رحمه الله فقد استنبط سبعين قاعدةً مهمّةً، يجب مراعاتها أثناء التفسير، وجمعها في مصنّفٍ أسماه: القواعد الحسان لتفسير القرآن[٨٣].

- استنباطه للكثير من الفوائد التي تندرج تحت الضرورات الخمس أو الحاجيات، ممّا لا تقوم حياة إلا به، ومن ذلك تأكيده على العدل، فهو مطلب كلّ الأمور، وليس حصراً على السلطان وحسب، بل كلٌ يخاطب بهذه القيمة الإسلامية الشريفة ويطبّقها كيفما اتفق.
- ملاحظاته الفقهية واستدلالاته من قبيل تركيزه على الجوانب الاقتصادية، والآثار المترتبة جراء الإخلال بها، والمشكلات التي تلحق الفرد وتؤثر على الجماعة بناءً على ذلك.
- بناء كل أساس على الركائز الدينية، وأنها رأس مال المسلم، فلا نعمةَ أجلّ من الهداية، ومن ضمن ما استدلّ به قوله تعالى: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)[٨٤] ارتكاباً لأخفّ الضررين، فإنّ قتل الغلام شرٌ، ولكن بقاءَهُ حتى يكبر ويفتن أبويْه عن دينهما أعظم شرّاً، فبقاء الدين أعظم من بقاء الغلام[٨٥].
- اهتمّ الشيخ رحمه الله بمناقشة العلوم العصريّة التي تشغل أبناء الزمان، فقد ناقش علم الطب والفلك والبحار، فقال في تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

---

٨٣ الكتاب للشيخ ابن سعدي نفسه،١٤١٥– ١٩٩٥. القواعد الحسان لتفسير القرآن. دار الاستقامة.

٨٤ سورة الكهف، الآية ٨٠.

٨٥ السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله. ١٤٢٠–٢٠٠٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. نشر مؤسسة الرسالة ببيروت. ٤٨٢/١.

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)[٨٦]: واعلم أن قواعد الطب تقوم على ثلاثة، حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها)[٨٧].

- تكلّم الشيخ عن علم البحار، وأنواع المياه المالحة والعذبة، وعن سير السفن فيها، ففي قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[٨٨] فسّرها الشيخ -رحمه الله- فقال: (هذا إخبار عن قدرته وتوالي حكمته ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسوِّ بينهما، لأم المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبةً فراتاً سائغاً شرابها، لينتفع بها الشاربون، والغارسون، والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكنٌ لا يجري فملوحته تمنعه من التغيّر، ولتكون حيواناته أحسن وألذ)[٨٩].
- تطرّق -رحمه الله- إلى علم الفلك، ففي تفسيره لقوله تعالى: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[٩٠] قال: (واعلم أنّ تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، فقد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دلّ العقل والنقل والحسّ والمشاهدة على ذلك، كما هو معروفٌ عند كثيرٍ من الناس خصوصاً في هذه الأزمنة التي وقف فيها الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرّبة للبعيد، فإنّ التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سُطّحَ لم تبق

---

٨٦ سورة النساء، الآية ٤٣.

٨٧ المرجع السابق: ١/٣٥٣.

٨٨ سورة فاطر، الآية ١٢.

٨٩ المرجع السابق، ٤/٢٠٨-٢٠٩.

٩٠ سورة الغاشية، الآية ٢٠.

له استدارةٌ تُذكر، وأمّا جسم الأرض الذي هو كبير جداً وواسع فيكون كرويّاً مسطّحاً، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة)[٩١].

من جهةٍ أخرى، كنت قد وقفتُ على تفسير الإمام ابن باديس، حيث له إسهاماتٌ مقصديه كانت جليّةً في تفسيره، ومن ذلك قوله: (القرآن أنزل للبيان، ولا بيان إلاّ بالإفهام، فكيف يكون في القرآن لفظ لا يُفهم له معنى؛ والجواب: أن عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور، لا يخل ببيان القرآن، لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن. إن الله تعالى أعطانا العقل، الذي به ندرك الآيات التي نصبها لنا؛ لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته، وعلمه وحكمته، ولطفه ورحمته.

وبالنظر في هذه الآيات نصل- بتيسير الله- بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة، ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها، ونعتبر بها.

وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليها أزمان، وهو يعدّها من المحال، ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له- في أحقابه الماضية- على بال، غير أن استجلاء هذه الحقائق، واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية- على نفاستها وعظيم نفعها- محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل، حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها)[٩٢].

وهكذا، فبالتتبّع نرى أن الأئمة جميعهم -رحمهم الله- قد ناقشوا كثيراً من مقاصد الشريعة، نجدها مبثوثة في تفسيرهم، ممّا يؤكد لنا أن التفسير لم يكن تبيين لمعاني الكلمات، وإنّما مناقشة الآيات للواقع الحالي الذي تعاصره الأمة، وما يستجد بشأنها موضّحين أن هذا القرآن دستور حياة، ناقشوا أيضاً

---

٩١ المرجع السابق ١٢٦/٣٢-١٢٧، ٣٩٦/٥-٣٩٧. بتصرّف يسير.

٩٢ ابن باديس، عبدالحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي. ١٤١٦-١٩٩٥. في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ٢٨٣/١.

الواقع العلمي الذي نتجّه إليه اليوم بقوّة، إذ كانوا يردّون على الاعتراضات والشبه التي وردت، ولا تزال ترد على هذه الآيات، سواءً ما يتحدث منها عن الأرض أو البحار، أو الأفلاك وما كان في حكمها، ودفاعهم كان مستنداً على حجّة وعلم، وما كان هذا الجهد العظيم إلّا لإبراز عظمة القرآن، واستحضارِهِ كلّ دقيقٍ في الحياة وجليلٍ، هدىً وضياء.

الفصل الثالث

الكشف عن المقاصد الشرعية من خلال الدلالات العلمية والتطبيقات الحديثة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدلالات والتطبيقات العلمية الحديثة، وبيان معانيها وخصائصها.

المبحث الثاني: الوقوف على الأدلة العلمية والتطبيقات الحديثة، وربطها بالمقاصد الشرعية الخمسة: (الدين، العقل، المال، النسل، النفس).

المبحث الثالث: أوجه الحاجة إلى توسيع آفاق الطرح المقاصدي.